نماذج من أوهام النقاد المشارقة في الرواة المغاربة

للأستاذ : إبراهيم الصديق

يعتبر هذا الموضوع القديم الجديد معا ، مما يلفت نظر المغربي حين يقرأ لمشرقي شيئا ما عن المغرب والمغاربة ، ومع أن شعور أهل المغرب – ومن قديم الزمان – يكاد موحدا نحو هذه الظاهرة فلم أر من أولاها حقها من العناية والبحث ، الا نتفا هنا وهناك . والواقع انه لا يمكن بحث هذا الموضوع والاحاطة بجميع جوانبه في مقال او اثنين ، بل يتطلب دراسة مستفيضة تستبطن أسباب هذه الظاهرة ، وتجلي العوامل التي ادت الى بروزها منذ مئات السنين الى الآن ، وباعتبار ان هذا المقال يخص احد جوانبها فقط ، فلا بأس من تسليط بعض الاضواء عليها بصفة عامة عبر « مدخل » يكشف ولو بصفة مجملة : موقف المغاربة من المشارقة ، والمشارقة من المغاربة ، ويتعرف منه على أسباب الموقفين . ولهذا قسمت هذا البحث الوجيز الى قسمين : المدخل الى الموضوع . والنماذج :

القسم الاول : المدخل الى الموضوع :

يدرك الباحث المتفحص دون عناء ، أن علماء المشرق الذين لم يدخلوا أقطار المغرب كالاندلس ، والمغرب الاقصى وما اليهما ، يقعون في أوهام غير

يسيرة ، عند ما يتحدثون عن المغرب وتاريخه ورجاله ، باستثناء قلة منهم، كالحافظ أبي الطاهر السلفي نزيل الاسكندرية والمتوفى بها سنة 575 هـ. فقد كان له اتصال وثيق بالمغرب وأهله . وبيته يعتبر قبلـة الحجـاج والطلاب والتجار من المغاربة ، وكأنه « بيت مغرب » . وكان يعرف أحوال المغاربة وأسرهم وانسابهم ، والنابهين من علمائهم . ومن لم يرحل منهـم كانوا يكاتبونه ويكاتبهم يجيزهم ويستجزهم . والحاج منهم كان يعتبر من تمام حجه زيارة السلفي وحضور مجالسه ، ويمكن عده بمثابة حلقة وصل بين المشرق والمغرب ، فأسانيد المشارقة الى المغاربة يمر اغلبها مـن طريقه ، والعكس صحيح .

وكالسيد محمد مرتضى الزبيدي من المتأخرين . فقد كان له هـو الآخر اتصال غير عادي بالمغرب والمغاربة . وبينه وبينهم مكاتبات . وله منهم زيارات فحصل له من ذلك تعرف كاشف على المغرب وأهله . بخلاف غيره من علماء المشرق الذين استغلـق عليهـم المغـرب لاسبـاب سنحاول التعرف على بعضها فيما بعد .

وهذا على عكس المغاربة بالنسبة الى المشرق والمشارقـة ، كمـا سيتضح من مناقشة ابي العباس المقري في قوله :

« ... على أن ابن خلكان وغيره من المشارقة ، ربما يقع لهم الفلط فى تاريخ أهل المغرب لعبد الديار وغير ذلك مما لا يخفى على من مارس علـم التاريخ ، كما ان كثيراً من المغاربة لا يحررون تاريخ المشارقة لما ذكرناه ، ولذا قال شيخ الاسلام ابن حجر فى « انباء الغمر بأبناء العمر » حين عرف ابن خلدون : ... وصنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات ... ولم يكن مطلعا على الاخبار على جليتها ولا سيما اخبار المشرق ، وهذا بين لمن نظر في كلامـه » (1) .

ويمكن تحليل كلام المقري هذا الى ثلاثة عناصر :

1) غلط المشارقة في المغرب واسبابه .
2) تناول المغاربة لقضايا المشرق وتاريخه ورجاله .
3) قضيـة ابن خلـدون .

---

(1) « أزهار الرياض في اخبار عياض » للمقري 1 / 25 ط. لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهـرة .

العنصر الاول : غلط المشارقة في المغرب وأسبابه :

أولا : غلط المشارقة في المغرب :

تدل التجارب والدراسات على أن غالب الوقائع والاحداث التاريخية وكذلك ما يسطر في كتب تراجم الرجال من عرض لاعمالهم وتقويم لاحوالهم . كل ذلك يكتنفه حالتان : حالة يكون فيها الحدث او مضمون الترجمة ظاهرا بينا واضحا متسلسلا تسلسلا منطقيا لا لبس فيه ولا غموض، وحالة يكون فيها ذلك مشتبها ومتداخلا ، وظاهر التناقض غير منسجم ولا مترابط ، بحيث يدرك الباحث ان ما هو مسطرا أمامه ، له خلفيات تحتاج الى بحث وتعمق لادراك خفاياه وربط حلقاته .

هذه الحالة الثانية ، عند ما تلابس احداث المغرب او ترجمة احد رجاله ويتناولها المشارقة بالبحث فانهم يحجمون عن الفحص والمقارنة والتدقيق ، واستخدام القواعد التي اصلوها هم انفسهم للتمييز بين المشتبهات ، والفصل بين المتداخلات والوصول الى الحقائق على ما هي عليها بل يمرون عليها مر الكرام ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث حسب المنهج الذي يسيرون عليه عندما تعترضهم مثل هذه الحالة بالمشرق ... وسيتضح كل هذا عند عرض النماذج ، ولا شك ان للمشارقة عذرهم في ذلك ، لان عوامله متعددة كما سيظهر مما يأتي :

ثانيـا : أسباب غلط المشارقة في المغرب .. واهمها فيما يبدو :

1) عدم اتقان اغلب المشارقة للخط المغربي ، فتشتبه عليهم الاسماء والانساب وخاصة المتقاربة في الرسم ، وقد وضع العلماء كتبا عديدة للتمييز بين المتشابه من الاسماء والانساب والكنى والمؤتلف خطا والمختلف نطقا . الخ . الا أن ذلك عندما يتعلق بالمغرب يعوق الخط المغربي مع الاسباب الباقية عن تحريره .

2) تأخر وصول كتب المغاربة الى المشرق ، على عكس كتب المشارقة التي تصل — في غالب الاحوال — الى المغرب في عصر مؤلفيها او بعده بقليل . حيث تقرا على مؤلفيها او على من قرأها عليهم . وينتج عن تأخر وصول كتب المغرب الى المشرق :

أ ـ تداول الكتاب بين أيدي النساخ فيقع فيه التبديل والتحريف .

ب ـ انطماس معالم النسخ الاصلية بالمحو والرطوبة وغير ذلك من الآفـــات .

ج ـ عدم تحليل الوقائع والاحداث المغربية تحليلا معقولا باستقصاء أسبابها من المصادر التي تحكي القول ومعارضه ليمكن تكوين فكرة شاملة عن الواقعة . فقد يصل الى المشرق كتاب يحمل وجهة نظر معينة عـــن واقعة ما بعد خمسين سنة من وقوعها ، او تصل ترجمة رجل على شكل . ثم يصل كتاب آخر يحمل وجهة نظر مغايرة . او الترجمـــة على شكـــل آخر بعد مائة سنة او قد لا يصل ــ وهكذا تبقى افكار المشارقة ومعلوماتهم عن المغرب والمغاربة ناقصة غير شاملة ولا محددة . ومعلوم ان تقويـــم رجل او حدث لا يكون تاما الا اذا استوفى عناصر من أهمها الاحاطة بسائر بالظروف والملابسات . والمقارنة بين الاقوال المتعارضة . في كل ترجمة او حدث . ثم انه جرت عاده المؤلفين ان ينقلوا عن بعضهم . وخاصة مـــا كانت مصادره شحيحة كأخبار المغرب وتراجم رجاله . فاذا غلط مشرقي في أمر مغربي نقل المؤلفون المشارقة الغلط كما هو وتدوول بينهـــم . وربما نقله بعض المغاربة عنهم كذلك .

3) اخذ المشارقة اكتب المغاربة ــ غالبا ــ على انها وجادات او بالاجازة العامة ، دون قراءتها على مؤلفيها او على من قراها عليهم . وبذلك يفوتهم تلافي ما تقدمت الاشارة اليه من نقص . ولا يدققـــون في ضبـــط التواريخ والانساب والاسماء والوقائـــع .

4) بعد الديار وصعوبة وسائل الاتصال . وابتعاد المغرب عـــن مراكز الاحداث المهمة في الشرق وقلة ما كتب عنه وعن تاريخه ورجاله . او عدم وصول ما كتب منتظما وموثقا الى المشرق كما تقدم .

ومع كل هذا فلا تنكر جهود علماء المشرق . وخاصة نقاد الحديث منهم في محاولة التعرف على احوال رجال المغرب باعتبار معرفـــة احوال الرجال من اهم وظائفهم ، بما تيسر عندهـــم من مصـــادر على علاتهـــا والحق انهم استفرغوا وسعهم وطاقتهـــم في ابـــراز تراجـــم المغاربة على النحـــو الـــذي نرى فـــي كتبهـــم رغـــم كـــل مـــا تقـــدم . وعذرهم في اوهامهم قائم لا محالة . ويكفي انه لولا جهودهم في هذا الصدد لبقي العديد من علماء المغرب وائمته مجهولين او لا يعرف عنهم الا القليل .

وكتب الحافظ الذهبي وحده كافية في تجسيد هذا المعنى بكل ابعـاده ، رغم اوهامها الكثيرة ، كما سيتضح من النماذج .

العنصر الثاني : تناول المغاربة لقضايا المشرق وتاريخه ورجاله . وفي ذلك يقول المقري : « كما ان كثيراً من المغاربة لا يحررون تاريـخ المشرق » ، مستشهداً بكلام ابن حجر في ابن خلدون .

أما كلام ابن حجر في ابن خلدون فهو واقعة عين واستثناء كما سيأتي في العنصـر الثالـث .

وأما ان المغاربة لا يحررون تاريخ المشارقة ، فهذا ما لا يوافق عليه المقري لعدة عوامل تمكن الاشارة الى اهمها على سبيل الاجمال ثـم على سبيـل التفصيـل .

أولا : على سبيل الاجمال :

باعتبار ان المشرق هو مهبط الوحي ، وبأقطاره استقر معظم الصحابة الذين نقلوا القرءان والسنن عن رسول الله (ص) وتلقى عنهم تابعوهـم وتابعو تابعيهم ، ثم تلامذتهم من بعدهم ، وبه كان الخلفاء الراشدون ومـا ظهر في وقتهم من احداث عظيمة ، وهو منشأ الائمة الكبار فـي مختلـف العلوم الاسلامية ، ثم به مكة والمدينة مقصد الحجاج والزوار ، فلا ريب ان المغربي اذا اراد ان يكمل فرائض دينه ، ويتقن لغة كتابه ، ويتلقى العلوم من مصادرها الاصلية وتعلو روايته ، فعليه ان يرحل الى المشرق لتحقيق كل ذلك ، وما لا يحصى من المنافع التي تعود عليه في دينه وثقافته ، وهكـذا صب المغاربة اهتمامهم الكلي على المشرق يدرسون تاريخه ، ويحللـون أحداثه ويحفظون اسماء رجاله وانسابهم وأشعارهم ويحيطون بتراجمهم ، مع قدر كبير من الاستيعاب والضبط والتثبت فشدوا الرحال الى المشرق، ومنهم من شد اكثر من رحلة ، وتقصوا حقائق الاخبار في اماكنها ، ورووا الكتب عن مؤلفيها ، او عن ثقات من رواها عنهم ، محاولين ما امكنهم تلافي النقص الذي يسببه لهم بعد ديارهم عن مركز الاحداث الاسلامية الكبرى .

وكان رائدهم ـ دائما ـ هو الاعتناء الفائـق بتحقيـق الروايـات والتواريخ ، وضبط الاسماء والالفاظ وتصحيح النسخ ، واستبعاد الاخطاء،

والتمييز بين المشتبهات ، حتى فاقوا المشارقة في هذا الصدد ، واعتبروا متشددين في اعتبار الضبط الى حد التزمت ، بل ربما عاد عليهم تشددهم بنقيض قصدهم ، فالعلو الذي ينشدونه قد اضاعوه بسبب ردهم للروايات لادنى هفوة تصدر من راو فيما يرجع الى الضبط ، وقد لاحظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة الحافظ ابن الفخار المالقي ، ان المغاربة نازلون في اسانيدهم وبين الحافظ السخاوي في « فتح المغيث » سبب هذا النزول فقال : « ان العلو المعتبر عند المغاربة هو علو الصفة لا علو المسافة » (2) . ولعل ذلك يفسر لنا قول القاضي عياض في باب ضبط اختلاف الروايات من « الالماع » : « والناس مختلفون في اتقان هذا الباب ، ولاهل الاندلس فيه يد ليست لسواهم » ونقل في ترجمة شيخه ابي جعفر بن المرخي المتوفى سنة 533 من « الفنية » عن ابي علي الجياني قوله فيه وفي ابي بكر بن مغوز المعافري : « ليس من هنا الى مكة في هذا الباب مثلهما » .

ويكفي ان نستشهد في هذه العجالة بمثال واحد على تشدد المغاربة في الضبط وعدم تساهلهم فيه ، توجد منه العشرات في كتبهم : ترجم ابن الابار في « التكملة » للحافظ الاندلسي الكبير ابي العباس النباتي المعروف بابن الرومية الاشبيلي — وله شأن عظيم عند حفاظ المشرق كما سيأتي قريبا — وبعد ان وصف حفظه واطلاعه وتمكنه في علم الحديث ، قال : « رايته ولقيته غير مرة ولم اخذ عنه ولا استجزته » وتبحث عن سبب هذا الترك من ابن الابار لهذا الرجل رغم طوافه بالمشرق وحصوله على روايات عالية ، ما حلم بها ابن الابار في الاندلس ؟ فتجد انه قال قبل ذلك في ترجمته : « وغيره اضبط منه » . وهذه العبارة لا يخطر على بال مشرقي ان يتحامى مثل النباتي من اجلها ، لانها تصنف عندهم في مراتب الجرح الخفيفة حتى ان بعضهم لم يعتبرها جرحا باعتبار انه ما من راو الا وغيره اضبط منه في شيخ او بلد ، فمالك مثلا اضبط في الحجازيين منه في العراقيين ، وهو اضبط في الزهري من الليث ، والليث اضبط في المصريين منه ، وشعبه اضبط في العراق منهما ، وهكذا .

---

(2) علو المسافة هو تقليل عدد الوسائط من غير نظر الى حال الراوي وعلو الصفة هو النظر الى حال الراوي اولا وبالذات ، وتمكنه او عدم تمكنه في باب الضبط ، كان يكون احفظ او اتقن او اقدم سماعا او ملازمة لشيخه وهكذا مع مراعاة بقية شروط الصحة.

وباعتبار هذا التشدد في الضبط ، كان المغاربة الذين لم تتيسر لهم الرحلة الى المشرق كابن عبد البر ، وابي علي الجياني والقاضي عياض وابن القطان ، وابن الابار ، أكثر ضبطا واشد تحريا فيما يرجع الى المشرق والمشارقة ممن رحل ، حتى لا يدخلوا من هذه الناحية .

ثانيـا : على سبيل التفصيل :

ويمكن الاكتفاء هنا ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ بعرض قل من كثر من مؤلفات المغاربة التي تخص المشرق واخباره وتراجم رجاله ، وسنرى منها ما يستدرك على المشارقة اخطاءهم في هذا المجال ويحقق ويضبط الوقائع والتواريخ والانساب المشرقية ، والحال ان عددا من مؤلفيها لم يرحلوا الى المشرق ، فمنها :

« تاريخ في المحدثين » لابي عمر احمد بن سعيد ابن حزم الصدقي المنتجيلي المتوفى سنة 350 هـ ، وهو خاص بالرواة المشارقة وقد قال فيه ابن حزم في « رسالة تفضيل الاندلس » : « ما وضع في الرجال احد مثله ، الا ما بلغنا من تاريخ محمد ابن موسى العقيلي ، واحمد بن سعيد هو المتقدم في التأليف ، القائم في ذلك .

ـ « الذيل على تاريخ البخاري » لمسلمة بن القاسم القرطبي المتوفى سنة 353 ، اشترط الا يذكر فيه الا من اغفلهم البخاري ، فاستدرك عليه رجالا ما عرفوا وعرفت احوالهم الا من جهته ، كما نجد النقول عنه بكثرة في كتب حفاظ المشرق ، وقد عدل وجرح وأزال الجهالة عن رجال، وقال الحافظ ابن حجر عن مؤلفه : « انه رجل كبير القدر » .

ـ ما روى الكبار عن الصغار « لنفس المؤلف » .

ـ « المؤتلف والمختلف » للحافظ ابن الوليد بن الفرضي ، وتوجد النقول ايضا عنه بكثرة في كتب المشارقة .

ـ « التمهيد » لابن عبد البر . واهميته من ضبط الوقائع والتواريخ والانساب لا تخفى على دارس .

— « الاستيعاب » لـه . وقد أثبت فيه الصحبة لرجال . ونفاها عن آخرين واستدرك على المشارقة ،وناقش وبين وفصل . بحيث يعتبر أحد الاصول المعتمدة في هذا الباب ، والحال ان مؤلفه لم يبارح الاندلس .

— « كتاب الكنى » لـه .

— « الأنساب » لـه .

— « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم .

— « التعديل والجريح ، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح» لابي الوليد الباجي . ولا يخلو كتاب في تراجم رجال الصحيح من النقل عنه .

— « تقييد المهمل وتمييز المشكل » لابي علي الجياني المتوفى سنة 489 ويعتبر أصل الاصول فيها يرجع الى شرح الغوامض والمبهمات والمشكل من أسماء رجال الصحيحين ،وكناهم والقابهم . الخ . ثم التنبيه على الاوهام الواقعة من رواة الكتابين عن الشيخين فيما يرجع الى ما تقدم. بحيث يعتبر صدور مثل هذا الكتاب غريبا من شخص لم يرحل عن الاندلس.

— « مشارق الانوار » للقاضي عياض . وقد أربى فيه على شيخه الجياني وزاد وأفاد في هذا المعنى فوائد لا توجد عند غيره . وهو الآخر لم يبارح المغرب والاندلس .

— « لسان البيان عما في كتاب ابي نصر الكلاباذي من الاغفال والنسيان » لابي عبد الله بن يربوع الاشبيلي المتوفى سنة 522 . وهو استدراك على كتاب الكلا باذي في رجال البخاري .

— « المنهاج في رجال مسلم بن الحجاج » لـه .

— « الاعلام بما في المؤتلف والمختلف للدارقطني من الاوهام » لابي محمد اللخمي الرشاطي المريي .

ويكفي انه استدرك على الدارقطني حافظ الدنيا .

— « انســـاب الـــرواة » لـــه .

— « غوامض الاسماء المبهمة » لابي القاسم بن بشكوال في عشرة أجـــــزاء .

— « أخبـــــار الاعـــــمشي » لـــــه .

— « أخبـــــار النسائـــــي » لـــــه .

— « أخبـــــار المحاسبـــــي » لـــــه .

— « أخبار اسماعيل القاضي » لـــه .

— « أخبـــــار ابـــن وهـــــب » لـــــه .

— « أخبـــــار ابـــن المبـــارك » لـــــه .

— « الروض الانف » للسهيلي . واهميته في تحقيـــق الوقائـــع وشرح الغوامض وضبط التواريخ والاسماء والانساب لا تخفى على باحث .

— « بيان الوهم والايهام » لابي الحسن بن القطان الفاسي ، وقد أتى فيه بما يتعجب منه في هذا الباب كما بينت ذلك بتفصيل في الاطروحة التي حضرتها عنه بعنوان : « علم العلل في المغرب من خلال كتاب بيـــان الوهم والايهام لابن القطان » يسر الله مناقشتها وازاح العوائق عن طريق دار الحديث الحسنية عمرها الله .

ولم أتعرض هنا لفهارس المغاربة ورحلاتهم ، ومعطياتها في هـــذا المضمار . فان لها مقالا خاصا أو بحثا مفردا ان شاء الله .

ولنختم هذا العرض الوجيـــز بنبذة عن :

— « الحافل في تذييل الكامل » لابي العباس النباتي الذي تقدمت الاشارة اليـــــه :

يعتبر « الكامل في الضعفاء » لابي أحمد بن عدى الجرجاني . الذي يقع في عشرين مجلدا ، اجمع كتاب في موضوعه . وعليه بني الذهبي كتابه « ميزان الاعتدال » حيث استدرك من اغفلهم ابن عدى ، واضاف من جاء بعد ابن عدى من الرجال ، ومن اهم مصادر الذهبي في استدراكه على الاصل ذيله المسمى « بالحافل » لابن الرومية الاشبيلي ، كما قال في مقدمة « الميزان » : « ... فهذا كتاب الفته بعد كتابي المنعوت « بالمعنى » وطولت فيه العبارة ، وفيه عدة من الرواة زائد على من في المعنى ، زدت معظمهم من « الحافل المذيل على الكامل » .

ثم كان « الحافل » من اهم مصاور زيادات ابن حجر في « لسان الميزان » على الذهبي . كما في الامثلة التالية :

لسان الميزان 21/1 : « اباء بن جعفر النجيرمي ... أورده الذهبي في ذيل الضعفاء . فقال : كذاب كان بالبصرة ، كذا أورده تبعا للنباتي في « الحافل ذيل الكامل » .

لسان الميزان 41/1 : « ابراهيم بن بكر الشيباني الاعور كوفي..تبع فيه المصنف ـ اي الذهبي ـ صاحب الحافل » .

لسان الميزان 331/1 : « اخشن السدوسي عن انس . قال الموصلي : حديثه ليس بالقائم ، روى عنه عبد المومن بن عبد الله السدوسي . قاله النباتي في الحافل . قال : ولم يخرج الموصلي من عهدة عبد المومن » .

لسان الميزان 369/1 : «اسحاق بن كثير من التابعين...ولم يذكر له الازدي شيخا سوى اسماعيل بن مسلم . وتعقبه النباتي بأن شيخه هذا هو اسماعيل بن سليمان الازرق ، وليس بحجة » . وهكذا نجد « الميزان » و « لسانه » لعلمي هذا الشأن مملوئين بالنقل عن الحافل واعتماده . وتسليم كلامه في الرواة المشارقة .

العنصر الثالث : قضية ابن خلدون :

اذا لاحظ الحافظ ابن حجر على ابن خلدون انه لا يحرر تاريخ المشارقة فهي ملاحظة ينبغي ان تقصر على ابن خلدون وحده ، ولا تتعدى الى غيره فيجعل حجة على المغاربة كلهم .

نعم باعتباره ان لكل قاعدة شواذ كما يقال ، والاستقراءات تكون في معظمها اغلبية . فقد وجد مغاربة قلائل مثل ابن خلدون يهمون في امور المشرق ، كابن حزم على جلالته وحفظه واطلاعه . فقد الف ابن القطان الفاسي ، كتابا انتقد فيه اوهام ابن حزم في « المحلى » في اسماء الرجال، وانسابهم ، وفي التواريخ وما الى ذلك . نقل جملة وافرة منه في كتابه « بيان الوهم والايهام » والحق ان بعض تلك الاوهام فاحش . وكذلك الف بعض المتأخرين من علماء المشرق ، وهو السيد احمد رافع الطهطاوي المصري المتوفى سنة 1354 كتاب « المسعى الحميد الى بيان وتحرير الاسانيد » كشف فيه عن اوهام غريبة في احدى الفهارس المغربية المشهورة . وتوجد كذلك اوهام هنا وهناك لبعض المغاربة . ولكن كل ذلك يعد من الشواذ التي لا تقدح في النتيجة العامة المستخلصة مما تقدم على أن ابن حجر كان سيء الرأي في ابن خلدون بصفة خاصة . ولا مجال لذكر تفاصيل ذلك الآن . ولنكتف باشارة عابرة ذكرها الحافظ السخاوي في « الاعلان بالتوبيخ » حيث قال :

« . . . وكذا مدح تاريخ ان خلدون صاحبه التقى المقريزي . . . ولم يوافقه شيخنا (اى ابن حجر) الاى في بعض . وحقق انه لم يكن مطلعا على الاخبار على جليتها ، ولا سيما اخبار المشرق . وهو بين لمن نظر في كلامه » .

وقال : « كان ابن خلدون يجزم بصحة نسب بني عبيد الذين كانوا خلفاء بمصر ، وشهروا بالفاطميين الى علي رضي الله عنه ويخالف غيره في ذلك ويدفع ما نقل عن الائمة من الطعن في نسبهم ويقول : انما كتبوا ذلك المحضر مراعاة للخليفة العباسي .. قال شيخنا (أي ابن حجر) : وابن خلدون كان لانحرافه عن آل علي يثبت نسبة الفاطميين اليهم لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين ، وكون بعضهم نسب الى الزندقة وادعى الالاهية كالحاكم ، وبعضهم في الغاية من التعصب لمذهب الرفض حتى قتل في زمانهم جمع من اهل السنة . وكان يصرح بسب الصحابة في جوامعهم ومجامعهم ، فاذا كانوا بهذه المثابة . وصح انهم من آل علي ، حقيقة التصق بآل علي العيب ، وكان ذلك من أسباب النفرة عنهم،نسأل الله السلامة » .

فاتضح أن احتجاج المقري بكلام ابن حجر في ابن خلدون على المغاربة عموما . هو احتجاج في غير محله . والله اعلم .

القسم الثاني : النماذج

أورد ابن حزم في « المحلى 9/1 » حديثا من طريق وهب بن مسرة عن محمد بن وضاح ، فكتب العلامة المحدث الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ تعليقا من جملته : « ووهب هذا هو ابو الحزم التميمي . كان حافظا للفقه والحديث والعلل ، فاضلا ورعا ، أخذوا عليه هفوة في الكلام في القدر » .

ولا شك ان الشيخ اخذ هذا الكلام عن الحافظين الناقدين : الذهبي وابن حجر ، فقد قال الذهبي في « الميزان » 47/4 :

« محمد بن مفرج القرطبي ، قال ابن الفرضي : ترك لانه كان يدعو الى بدعة وهب بن مسرة » .

وقال ابن حجر في « اللسان » 387/5 ، متمما كلام الذهبي :

« ووهب كان قدريا ، وفي المغاربة : محمد بن احمد بن يحيى بن مفرج من الحفاظ يحرر ترجمته ، هل هو المراد هنا أو غيره ؟ وقد نسب هذا الحافظ الى جده الاعلى مفرج في عدة أسانيد ، فالظاهر انه هو ، وكانت وفاة هذا الحافظ سنة 380 . وقد اثنى عليه بالحفظ والضبط جماعة من الائمة . منهم : ابن الفرضي ، وابن عفيف والحميدي ، وذكر من جملة تصانيفه : « فقه الحسن البصري » في سبع مجلدات .

وقال في ترجمة وهب بن مسرة من « اللسان » 231/6 :

« وهب بن مسرة التميمي ابو الحزم من العلماء بالفقه والحديث ،

وتكلم في شيء من القدر ، فعابوا عليه ، وتبعه جماعة على مقالته ، مات سنة 346 » .

والملاحظ ان الذهبي وهم في وهب بن مسرة فتبعه ابن حجر مزكيا وهمه ومضيفا أليه اوهاما أخرى فنتج عن ذلك سلسلة من الاغلاط .

أولها : ان ههنا اربعة اشخاص جعلهم الذهبي ثلاثة ، وابن حجر اثنين . وهم :

1) محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي .

2) وهـــب بن مسرة الحجـــــاري .

3) **محمد** بن مفـــرج الفنـــــي .

4) **محمد** بن أحمد بن يحيى بن مفرج الحافظ .

ولا علاقة لاحد هؤلاء الاربعة بالآخر لا من قريب ولا من بعيـد كمـا سيظهر بعض ذلك من :

ثانـي الاغـلاط : ان الذي نسب الى القدر والاعتزال وخالف رأي الجماعة بالاندلس ، وظهر بمذهب جديد في الاصول ، فأحرقت كتبـه ، وجرح اتباعه ، هو : **محمد** بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلي . وهو من اهل قرطبة وبها مات سنة 319 هـ .

اما وهب بن مسرة العالم السني المحدث الحافظ راوية ابـن وضاح وتلميذه الملازم له ، فهو : وهب بن مسرة بن مفرج بن حكم التميمي مـن أهل وادي الحجارة فكان يعرف بالحجاري ، وبها أقام ولم يدخل قرطبة الا للسماع او اسماع أصول ابن وضاح . وتوفى سنة 346 هـ . فهو أبعـد الناس عن التهمة التي األصقها به الحافظان الذهبي وابن حجر .

ثالثها : أن محمد بن مسرة المبتدع له بالاندلس شهره كبيرة وقصص مأثورة بحيث يستغرب خفـاء شأنـه على مثـل الذهبـي مؤلـف « تاريخ الاسلام » العظيم ، حتى يخلط بينه وبين وبين وهـب بن مسرة والحال انه لا رابطة تجمعهما ، والغالب انه تحرفت عليه نسخة « المدارك » للقاضي عياض ، فقد نقل في ترجمة وهب من « تذكرة الحفاظ » 3 / 890 عن عياض قوله فيه : « بدت منه هفوة في القدر » مع ان عياضـا قال في ترجمة وهب من المدارك 452/4 . ط. بيروت عكس ذلك . قال : « وله كتاب في السنة واثبات القدر » ولم يتعرض لهفوة ولا غيرها . بل وصفه بأنه : « كان حافظا للفقه بصيرا به وبالحديث بصرا حسنا ، ضابطا لكتبه ، مع ورع وفضل ودارت عليه الفتيا بموضعه .... وسمع عليه عالم عظيم ... واليه كانت الرحلة في حياته » .

وعلى فرض انه بدت منه هفوة ، فالهفوة بمجردها لا تقتضي ان يكون داعية الى مذهب . وله اتباع يتركون وتطرح رواياتهم . مع ان الله يعلم انه

بريء من الهفوات . ولو بدت منه اقل هفوة في المعتقد لطرحه الاندلسيون قاطبة ، ولما شدوا الرحال اليه ، واستقدموه الى قرطبة للسماع منه . كما يعلم من تشددهم البالغ في هذا الباب ولما ملأ ابن حزم كتبه من روايته ، وقد اشترط في اول « المحلى » ان لا يحتج فيه الا بحديث صحيح عنده . ومعلوم ان خبر الاحاد الصحيح عنده ـ بصرف النظر عن كونه في الصحيحين أو غيرهما ـ يفيد عنده العلم لا الظن ، ولا يفيد العلم عنده الا ورواته سالمون من كل ما يقدح في العدالة التي من اهم مفاهيمها عنده مجانبة البدع .

وهكذا راح وهب بن مسرة ضحية اشتراكه في النسبة الى « مسرة» مع محمد ان مسرة الفيلسوف ، فأدخله ان حجر في « لسان الميزان » المخصص للمتهمين والضعفا ، وذلك ظلم له نتج عن عدم استخدامه هو والحافظ الذهبي ـ رحمهما الله ـ لما يستخدمانه بالنسبة الى المشارقة في التمييز بين المؤتلف أسماؤهم وانسابهم ، والحال ان التشابه يكون كاملا في الاسم واسم الاب والنسبة والبلدة والزمان . ومع ذلك يميزان بين عدد كبير من الرواة على هذا الشكل ، لا بين رجلين لا علاقة بينهما الا التشابه في اسم اب هذا . وجد هذا .

رابعها : محمد بن مفرج الذي نقل الذهبي عن ابن الفرضي انه ترك لانه يدعو الى بدعة (وهب) بن مسرة . لا بأس من الاتيان بنص ابن الفرضي فيه ليزداد هذا الامر وضوحا .

قال ابن الفرضي في « تاريخه » 84/2 : « محمد بن مفرج بن عبد الله بن مفرج المعافري ، من اهل قرطبة ، يكنى ابا عبد الله ، ويعرف بالغني . سمع من قاسم بن أصبغ وغيره ، ورحل الى المشرق ، فسمع بمكة من ابن الاعرابي ، وبمصر ، من عبد الملك بن محمد بن بحر بن شاذان الجلاب ، ولقي بها ابا جعفر احمد بن محمد بن النحاس ، فروى عنه تأليفه في اعراب القرءان . وفي المعاني ، والناسخ والمنسوخ ، وغير ذلك ، وهو أول من ادخل هذه الكتب الاندلس رواية ، وكان يعتقد مذهب ابن مسرة ، ويدعو اليه ، وكان قليل العلم . حدث وسمع الناس منه ، ثم ترك الناس الاخذ منه ... » .

فلم يقل ابن الفرضي انه دعا الى بدعة وهب بن مسرة ، بل قال ابن مسرة فقط ، وابن مسرة معروف من هو بالاندلس . وقد ترجم له ابن الفرضي قبل ذلك 41/2 ترجمة بين فيها امره . ومما جاء فيها : « أتهم بالزندقة ، فخرج فارا ، وتردد بالمشرق ، فاشتغل بملاقاة اهل الجدل واصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف الى الاندلس ، فأظهر نسكا وورعا ، واغتر الناس بظاهره ، فاختلفوا اليه وسمعوا منه ثم ظهروا على سوء معتقده . وفتح مذهبه ، فانقبض من كان له ادراك وعلم . وتمادى في صحبته آخرون غلب عليهم الجهل فدانوا بنحلته .... » .

فلا ادري من اين جاء استنتاج ان ابن مسرة الذي تبعه محمد بن مفرج هو وهب ؟

خامسها : وهي تخص الحافظ ابن حجر وحده ـ : انه وقف على تاريخ ابن الفرضي ، لانه ينقل عنه كثيرا في كتبه . وقد رأينا قول ابن الفرضي في ابن المفرج هذا : انه كان قليل العلم . ولما استنتج ابن حجر ان ابن مفرج هذا هو محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج . قال :

ا ـ انه من الحفاظ .

ب ـ اثنى عليه الائمة ، منهم : ابن الفرضي ، وابن عفيف ، والحميدي بالحفظ والاتقان .

ج ـ تتبع فقه الحسن البصري (وحده) في سبع مجلدات .

فهل يكون الحافظ الذي هذا شأنه ، قليل العلم ؟

سادسها : وهي تحض ابن حجر كذلك قوله في ابن مفرج : « وذكر المصنف ـ يعني الذهبي ـ في الحفاظ ان ابن الفرضي روى عنه وأنه روى عن وهب بن مسرة ، فالظاهر انه هو » .

فقد استنتج ان ابن مفرج الفني هو ابن مفرج الحافظ ، ورتب استنتاجه على النحو الذي ذكر وهو غريب لامرين .

الاول : ان الذهبي لم يذكر في ترجمة ابن مفرج الحافظ من « التذكرة » 1007/3 . انه روى عن وهب بن مسرة . ولا ذكره في شيوخه حتى يستنتج ما استنتج ، بل لم يذكر احد ان ابن مفرج الحافظ روى عن وهب ابن مسرة ، لا ابن الفرضي تلميذه ، ولا الحميدي ولا عياض، ولا غيرهم ، وان كانت لا تستحيل روايته عنه اذ توفى وهب سنة 364 وابن مفرج 380 هـ ، ولكن لم يذكروا انهما اجتمعا .

الثاني : الاكتفاء بالرواية عن شيخ ما في تحديد شخص الراوي . غريب في حد ذاته . لان ذلك انما هو عندهم من جملة القرائن والمرجحات، وليس اصلا مستقلا في التعريف بالراوي .

وبعد : فان اسم « مفرج » شائع جدا بالاندلس ، وفي علمائهم عدد كبير ممن اسمه او اسم ابيه او جده : « مفرج » وكتب تراجيمهم من كتاب الخشني الى « الاحاطة » لابن الخطيب . طافحة بهذا الاسم . ولا زالت اسر اندلسية في شفشاون وطنجة تحمل اسم « مفرج » الى الآن .

وقد ترجم ابن الفرضي في تاريخه فيمن ترجم لهم ممن يحمل هذا الاسم : لمحمد بن مفرج الفني احد اتباع ابن مسره . ولشيخه محمد بن احمد بن محمد بن يحيى بن مفرج الحافظ الكبير الرحال ، في الجزء الثاني ص 95 . ومما قاله في ترجمته : « ... وكان حافظا للحديث ، عالما بعلله . بصيرا بالرجال ، صحيح النقل جيد الكتاب على كثرة ما جمع ، سمع منه الناس كثيرا ، واليت الاختلاف اليه والسماع منه ، من سنة تسع وستين ، الى ان اعتل علته التي توفى بها ، واجاز لي جميع ما رواه غيره مرة ، وكتب لي ذلك بخطه ، ولا خي » . فأظن انه لا محال للاشتباه بعد هذا بينه وبين اي « ابن مفرج » آخر كما انه لا مجال للاشتباه بين وهب بن مسرة الحجاري الحافظ وبين محمد بن مسرة القرطبي الفيلسوف .

بقية النماذج في العدد المقبل ان شاء الله .